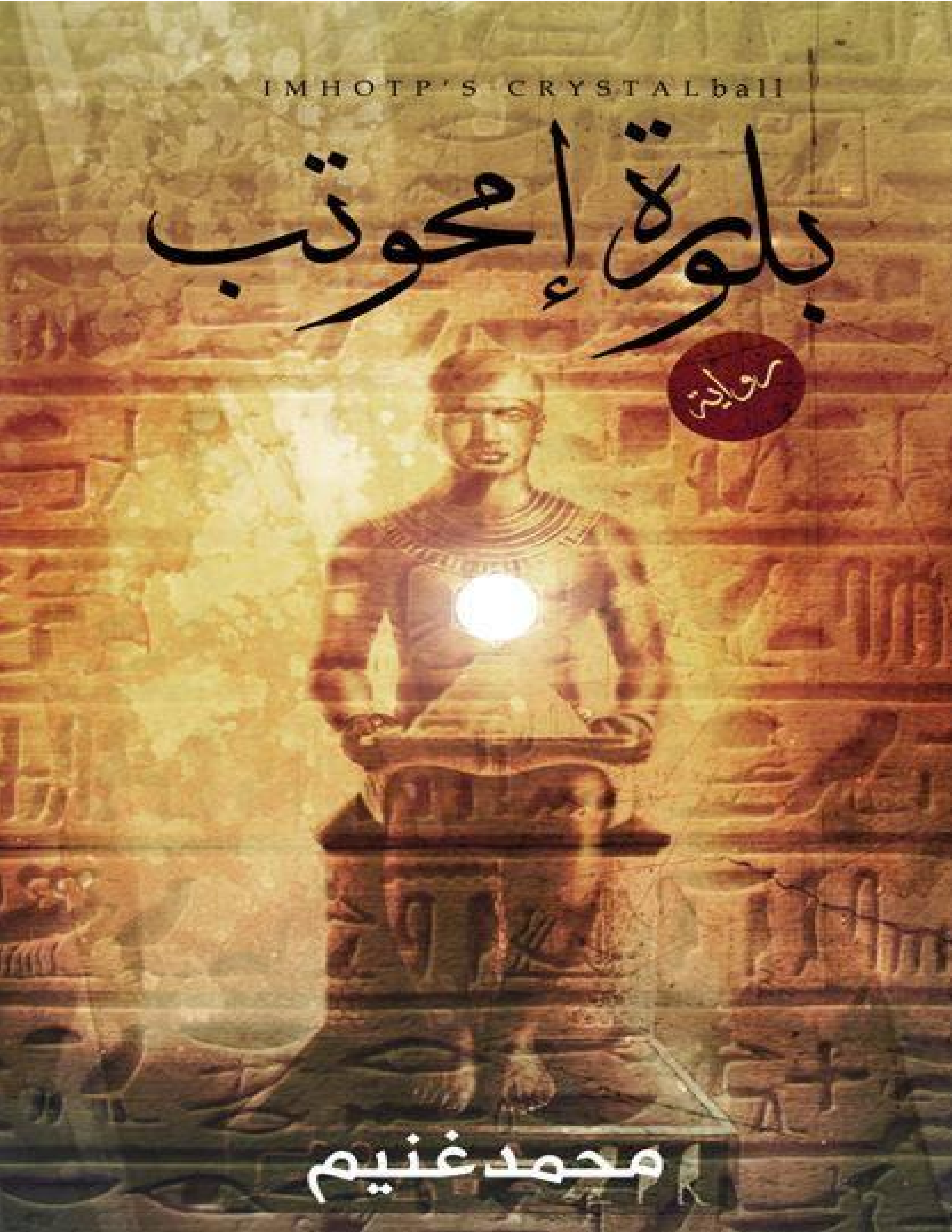

IMHOTP'S CRYSTALball
بلورة إمحوتب
رواية
محمد غنيم

محمد غنيم

بلورة إمحوتِب

(رواية)



عصير الكتب للنشر الإلكتروني

٢٠١٣ – ٢٠١٤

رواية بلورة إمحوتب

محمد غنيم

إهداء

إلى صفية حيث كانت وحيث تكون. إلى صفية غسان وصفية أحمد خالد توفيق. إلى صفية التي تعلمت منها وصفية التي ربتني. إلى صفية بلدي، وكل صفية مقهورة مظلومة. إلى كل صفية بالغة وعاقلة وراشدة، وإلى كل صفية صغيرة حالمة ومغلوب على أمرها. إلى صفية الأم وصفية الأخت وصفية الزوجة والحبيبة وصفية الابنة. إلى كل هؤلاء الصفيات أهدي إليكم باكورة أعمالي.

إهداء خاص

إلى معتقلين، ورفقاء درب؛ هم الأحرار !

فايز

زكريا

حسومى

إسلام

العطار

حشاد

مقدمة

الكتابة حق أصيل لكل إنسان، يعبر بها عن ما يدور في خلجاته، ويناقش مع نفسه أفكاره بصوت عال، ويسجل ما يشعر به، أو يُدوّن بعض مشاعر قد تعتريه في ورق سيبلى أو يحرق يومًا ما، والكتابة لي ولبعض الناس هي العالم الثانى إن لم يكن الأول؛ هو عالمي الذي اخترته أنا واخترت أن أحيا فيه، الكتابة أحيانا جبن، وأحيانا أخرى شجاعة.

أن تكتب وأنت تعلم أن لا أحد سيقرأ ما تكتب، وتدعي أنك قد أديت حق الكلمة فهذا جبن. وأن تقف أمام نفسك وتكتب صراحة ما تشعر به، فهذه شجاعة.

بين دفتي هذا الكتاب كلمات ومعان وقصة وسرد، هذا الكتاب يمثل لي الحبو نحو عالم الكتابة، أشق الطريق بقدم مسطحة ناعمة وصغيرة الحجم، فتتعثر بعض كلماتي، ولربما خانتني بعض الألفاظ وسقطت، لكنها حتما ستقف وستكمل الطريق بكم، بكل شخص مَدَّ لي يد العون وأمسك بيدي وساعدني على النهوض وانتقد قلمي نقدا بناءا.

الجزء الأول

لا تتخلّ عن وطنك حتى لو تخلى هو عنك!

إمحوتِب

الفصل الأول

أيقظته أشعة الشمس الحارقة وحرارة الأرض من تحته تأكل جسده، وما إن فتح عينيه متكاسلا حتى فزع مما رأى، هب واقفا ظل ينظر أمامه وخلفه في ذهول ثم أخذ يفرك عينيه بأصابع كفيه عله يحلم. إن عينيه قد خانتاه لم يثق في هذه اللحظة بحواسه، لكنه في الوقت ذاته أخذ يتذكر ما الذي كان يفعله قبل أن يستيقظ، مالذي حدث قبل أن ينام !.

***

تذكر سريعا أنه قد عاد متأخرا من مناوبته في المستشفى التي يعمل بها، وعندما دخل بيته سألته زوجته:

-هل أعد لك طعاما حبيبي؟

شكرها ثم قال بلطف:

-لقد تناولت عشائي في المستشفى حبيبتي.

فقطبت وجهها وعبست ثم قالت:

-لماذا لا تكف عن هذا الأكل؟ عن هذه الأطعمة (التيك اوي) فهي ضارة وليست صحية !.

فرد خالد عليها مبتسما ومحاولا تهدئتها بعد ما احمر وجهها حنقا :

-آسف حبيبتي لن أفعلها ثانية، ولكني كنت جائعا ، ثم إنني لم أكن لأعود إلى المترل قبل ثلاث ساعات!.

فاعترضت هي وقالت:

-وكم مرة أخبرتك ..

لم تتم جملتها حتى نطق ما كانت تقوله وردد معها وكم مرة أخبرتك أن أصنع لك طعاما . ثم قال:

-لست طفلا ! ثم تذكر المشكلة التي بينهما بسبب الطفولة هذه وحقيقة عقم زوجته ثم عدل جملته قائلا :

-كل أصدقائي لا تفعل زوجاتهم مثل ما تفعلين أنتِ! و لم يتم جملته حتى علا صوتها:

-كل أصدقائك لا تطلب منهم زوجاتهم مثلما أفعل أنا!. كل أصدقائك يأكلون هذه الوجبات السريعة .. كل أصدقائك .. كل أصدقائك .. لقد سئمت أصدقائك هؤلاء ...

وبعد صمت ساد المكان لم يسمع سوى صوتين، صوت نبضات قلبها المتسارعة، وصوت دقات عقارب الساعة، إلا أن صوت دقات قلبها كان قد طغى على صوت عقارب الساعة، ثم تنهدت وقالت بانكسار امرأة:

– وهل كل أصدقائك لديهم زوجة مثلي تخاف على زوجها، وتحبه كل هذا الحب!!! .

فعاد الصمت ملك المكان وأميره للمرة الثانية، إلا أنه انتبه سريعا لموقفه المحرج هذا، فاحمر وجهه خجلا من تقصيره وعدم تفهمه زوجته، فأراد أن يعتذر على طريقته، فطبع قبلتين على وجنتيها واحدة على خدها الأيسر، والأخرى على خدها الأيمن، ثم أوتر الثالثة على فمها، تعانقت شفتاه بشفتيها التصقتا واحتضنتا بعضهما ببعض وطالت هذه القبلة، أو توقف الزمان عندها، وما أن ارتوى وسقى زرعه حتى أنشدها ما قاله عبد الولي الشمري: «رحيق الثغر من شفتيك سكر» فابتسمت هي معلنة انتهاء الحرب، وقبولها بهزيمتها، إلا أنها قبل أن ترفع رايتها البيضاء سألته بمكر أنثى:

– وماذا أكلت اليوم إذا ؟

– فقط (سندوتشان) برجر وكفته .

– برجر وكفته ؟ تقصد كفته ؟ لم تتمالك نفسها، وجن جنونها، وأخذت تضحك حتى أنها لم تستطع منع نفسها من الضحك، كان حقا ضحكا هيستريا!

فقال باستهزاء:

-ماذا هناك ؟ أفي البرجر سُم قاتل ؟

فلم تجبه وظلت تضحك على غير العادة، فنظر إليها بريبة، ثم أعاد سؤاله ثانيه فنظرت إليه وقالت:

-كلا بل الكفته !

-ما بها؟

- بها إيدز وفيرس سى قاتل !

تشكك كلامها و لم يفهم شيئا من حديثها.

***

لم تمر بضع دقائق حتى سمع صوتا وجلبة قادمة من بعيد، وإن كان لم يتنبه بعد ماهية هذه الأصوات ولكنه ظن بداية أنها أشباحا فظل يبحث عن مأوى، عن كهف، عن جحر يختبئ فيه، ولكن لافائدة، فالصحراء والصحراء فقط تحوطه من كل جانب لا مفر، وبعد قليل بدت ملامح هذه الأشباح تظهر شيئا فشيئا. إنهم رجال يسحبون حجارة من خلفهم، ولكن هؤلاء الرجال كانوا قد ارتدوا قطعة واحدة من القماش يسترون بها عوراتهم. نعم ، إنها الجونلة أو المجولة التي قرأ عنها من قبل. نعم، إنها هي المجولة التي تلف حول الجسم بحزام أو بعمل ثنية كبيرة من الأمام، وهذا المجول كان خاصا بطبقة العمال من الفراعنة، ثم توقف فجأة عن التفكير وقال هل هذا يعني أنني ... لا، مستحيل، إنني أحلم. نعم ، أحلم أحلم ولكن كيف !

هل أنا حقا أحلم ؟ أم أنني اخطتفت من زمان غير زماني، وانتقلت إلى عالم غير عالمي!

بقدر الخوف الذي تدفق إلى شرايين قلبه، والفزع الذي حاصره حينما رءاهم يقتربون منه خشية القتل، أو أن يجبروه على العمل معهم نظير قوت يومه، عملهم ذلك الشاق، والذي لا يناسب بنيان جسده النحيف والهزيل، ويدية اللينة الطرية، وبشرته الناعمة الحساسة، ووجهة الأبيض الأقرب إلى

الحمرة، فهو لا يقوى على هذه الأعمال، رغم هذا الخوف إلا أنه كان في غاية السعادة، فقد قال في قرارة نفسه إن كان هذا حقيقة فعلي أن أستفيد من هذا، والحق أنه كان رجلا برجماتيا بكل معنى الكلمة، فأراد أن يقف على أسرار هذه الحضارة مادام هو الآن بينهم. قد كان متوقا لمعرفة الكثير والكثير عن علومهم التي واراها الثرى، التي دفنوها كما دفنوا آبائهم، والتي محوا آثارها فلا يستدل عليها أحد بعدهم يريد أن يعرف كل شيء حتى إذا تمكن من العودة نشر علمهم وأباح أسرارهم حتى يصبح الرجل الأول في العالم.

هو يريد مفتاح هذه الأسرار، وطالما هو معهم الآن فعليه أن يصنع المستحيل ليحصل على كنزهم الدفين –أسرارهم –.

وبينما هو يفكر إذ ببعض منهم يقتربون منه يلتفون حوله، يحوطونه، يطوقونه، وهو لا يملك إلا ابتسامة يوجهها إليهم كراية بيضاء يرفعها لإعلانه الاستسلام، لكن الشرر الذي يتطاير من عيونهم لا يعترف بالاستسلام، بل أكثر من ذلك، كَوّنوا دائرة حوله، دائرة كان هو مركزها وقلبها، أحس بنبضات قلبه تتسارع وكأنه يفرز الآن هرمون الأدرينالين، وخيل له أن أحدهم يرفع صخرة كبيرة ليهوي بها على رأسه فخر صعقا وهوى إلى الأرض.

***

مدت زوجته يدها إليه ثم قالت:

– تعال معي، فانطلقت به إلى غرفة المكتب وجلست إلى أقرب كرسي مقابل لجهاز الكمبيوتر، ثم أشعلته، وكان متصلا بالانترنت ففتحت نافذة (اليوتيوب) وبحثت عن مقطع (فيديو) وقالت له:

– استمع إلى هذا جيدا !

فكان يستمع إلى أحد لواءات الجيش وهو يقول باكتشاف علمي، جهاز يمكنه أن يكتشف مرض الإيدز والفشل الكبدي ويعالجهما وكانا في الحقيقة جهازين، وحينما ذكر مثالا بسيطا توضيحيا لطريقة العلاج وقال بكلمة الكفتة أخذت الزوجة تضحك، ولما انتهى ذلك المقطع الذي لم يستمر غير دقائق معدودة، وهو لايزال صامتا،على هيئته التي لم تتغير، ومحافظا على هدوئه، أعاد تشغيله ثانية ثم قال بغيظ:

– ماهذا الغباء! هذا كلام غير علمي، وظل يصرخ بألم، ويقول هذا كذب، متاجرة بأحلام الفقراء المرضى. أكثر من عشرة مليون مصري سيتعلقون بهذا الأمل، وغدا سيموتون حينما يكتشفون زيف هذا الجهاز، وكذب هؤلاء الناس. لابد وأن يتوقف مثل هذا الهراء، إنهم يقتلون المصريين بتعليقهم على هذا الأمل وأخذ يبكي!

قالت له زوجته:

- لاعليك، وماذا تملك أنت؟ يكفي إنكارك ما حدث!

ارتمى إلى حضنها كالطفل الذي يؤي إلى صدر أمه لينام شاعرا بالسكينة والطمأنينة ثم قال:

- لا يمكن أن نصمت على هذا الكذب لابد من وقفة منا نحن الأطباء لنخبر الناس بالحقيقة. أتمنى أن يكون هذا حقيقية لا خيال . أتمنى ذلك من كل قلبي أتمنى أن يخيب ظني، ولكن كيف!

ربتت على كتفه وقالت:

– وفقك الله!

قام مسرعا ورفع سماعة الهاتف واتصل بأحد الأصدقاء الأطباء يدعى «علي» كان رفيق الدراسة، وأطلعه على الأمر، فرد عليه صديقه:

– نعم، وأنا أيضا سمعت هذه الأخبار وقرأتها في الجرائد ورأيتهافي التلفاز هذا عبث بكل معنى الكلمة، والعجب أن بعض الأطباء يصدقون هذا الأمر ويروجون له، وأنا لا أدري أهم حقا أطباء أم... و لم يتم جملته ولكنه قال للأسف إنهم يقنعون البسطاء بهذا الهذيان، وتستضيفهم بعض القنوات ليتحدثوا عن هذا الجهاز المزعوم.

قال لي أحدهم بأن هذا الجهاز يقتل الفيروس في الدم وفى نفس الوقت خلايا الدم تضيء بالطاقة الكهرومغناطيسية من الجهاز ويقوم بنفس الدور داخل الكبد وباقى أعضاء الجسم وهذا يعني أن الجهاز يشع على الدم والدم المحمل بالطاقة يشع على الأعضاء الداخلية، ولكني جادلته في كل جملة قالها حتى أنني ضحكت كثيرا من كلامه هذا وكأنه ليس طبيبا حتى يقول مثل هذا الكلام التافه، يمكنه أن يخدع البسطاء بكلامه هذا، ولكن كيف يجاري طبيبا مثله!. قلت له إذا كان كلامك صحيحا فما رأيك إذا ما حقنتك بالإيدز لكي نرى تأثير هذا الجهاز عليك، لكنه لم يرد وانسحب.

– نعم، يا علي، ولكن لماذا لم تخبر هذا المعتوه بأبسط شيء، وهو أن الايدز يصيب الخلايا، وجهازهم هذا المزعوم يدّعون أنه ينقي الدم فكيف سيكون العلاج إذا؟! هل سيسحب خلايا الجسم نفسها؟! وهذا مستحيل كما تعلم، وفيما يخص الإلتهاب الكبدي فهل سيسحب هذاالجهاز الكبد ؟!

- يا صديقي، لقد أخبرته بكل هذا و لم يستطع الرد، ولقد تعجبت كثيرا من أمره وكما قلت لك فإنني تشككت في كونه طبيبا من الأساس وأخبرته إذا كنت طبيبا حقا، فلابد وأنك تعرف أن أي بحث علمي لابد وأن يعرض على العالم لابد وأن تنشره المجلات العلمية، لابد وأن يحظى بتأييد كبير في المؤتمرات العلمية العالمية، لابد وأن يرى النور في مثل هذه الأوساط العلمية، وغير هذا عبث، فكيف يحدث هذا بين ليلة وضحاها؟ أن نكتشف أننا اخترعنا أجهزة تكتشف المرض وتعالجه!

- يا صديقي لقد أصبحنا أضحوكة العالم، وأنا وإن كنت أرى أن كل ما حدث هذا ليس فيه ذرة من علم، إلا أنني لازلت أتمنى أن يصبح هذا حقيقة.

إنني أتشبث بأمل أن أكون أنا المخطئ، وهذا ما أكدته لزوجتي منذ قليل، فيكفي ما يعانيه المرضى من المرض، لا أن نزيدهم ألما فوق آلامهم بأمل هو سراب.

***

الفصل الثاني

فتح عينيه ليجد أنه في قصر عظيم، ولا يزال حوله أولئك الفراعنة ذوو المحاول...

اقتاده الجنود الذين قد أحاطوا به، فكانوا كسلسلة أو حبل طوق به، لم يتحدثوا معه، فَهِم من إشارتهم أنهم يريدونه أن يتبعهم، فتبعهم دون أن يَنبس بِبنت شفةٍ، لكن نظرته إليهم لم تغير من الأمر شيئا، و لم تزده معرفة عما عرفه سالفا، هل عاد به الزمن إلى ذلك العصر العتيق، إلى مصر الفرعونية! وإن كان، فإلى أي حقبة من التاريخ، وبين أَظهرِ أي أُسرة من الأُسر هو الأن، وهل وصل إلى هنا عن طريق بوابة من إبواب أسرارهم المورابة، أم عن طريق نافذة من نوافذ حضارتهم غير الموصدة، أم احتوته صفحة من صفحات تاريخهم، الذى كان منشغلا به ؟! ظل هكذا على حاله يخاطب نفسه، يؤكد ما رآه بأم عينه، وينفيه، يصدق الواقع، ويُكَذبه، يشعر وكأنه حلم، ويعيش وكأنه حقيقة، نظر لحاله ثانية وملابسه وملابسهم، ظل في حيرة من أمره، تمنى لو أن أحدا يخرج عليه من عالمه الفرعوني هذا ليأكد له ما يراه، ويثبته، أو من يدخل إلى حلمه فيخبره أن أفق فلقد تأخرت عن العمل، يتمنى دليلا واحدا للإثبات، أو النفي هو متأكد من أنه سيتعايش مع أي عالم، ولكنه لا يريد هذا التيه، ولا هذه الحيرة، فقط يريد معرفة ما إذا كان هو الآن واحدا منهم، أو زائرا لهم !

ظل ساعة يمشي، والشمس فوقه، يكاد يصيبه الدوار من تلك الشمس الحارقه، وجهه محمرا، واضعا يديه على وجهه حاميا إياه من شمس الصحراء، والعرق يتصبب منه، وها هي زخاته الأولى تتساقط على الأرض، حتى تعطيه هو إشارة البدء أيضا بأن يضع يده على جبينه فيمسح عرقه بيديه، وينفضه على الأرض، عيناه لا زالتا تتنقلان بين الجنود ليقول في قرارة نفسه ألا يشعر هؤلاء بالتعب، والنصب، ألا يصابون بالدوار ألا يَكِلُّون!

ألا يملون، وهم يغدون ويروحون كل يوم وكل ساعة تحت شمس الصيف هذه، وكل أيامهم أحسبها صيفا، أم أن هذه الشمس أصبحت غذاؤهم فقد اعتادوا عليها واعتادت عليهم صاحبوها وصاحبتهم !

توقفت عن السير والتفكير لما توقفوا أمام بناية لا أدري ما هي، ولكننا لما ولجنا كان فناءا طويلا، مشينا قرابة المائة متر، كانت هذا البناية مشيدة على قاعدة مرتفعة، كانت ربوة أو مصطبة عالية، ولما دخلت معهم من المدخل الرئيسي لهذه البناية كان أول ما رأيت بهوا يتوسطه أربعة أعمدة ثم صالتين متعامدتين طولية وعرضية وعند الصالة العرضية كان هناك ثلاثة مداخل، المدخل الأول الذي دخلته قادنا للفناء الذي كان للعبادة، أوهو للطقوس الفرعونية كما علمت بعد ذلك من إمحوتب، وكما عرفت منه أيضا أن هذا الفناء أو هذا المدخل الذي لم يكن مسقفا كان للعبادة حيث الشمس فقلت في قرارة نفسي، إذَن لم يكن أولئك الفراعنة يكرهون الشمس، فقط أنا من كان يكرهها حينما كنت أسير معهم إلى هذا المكان، فهي –الشمس– إلههم.

وأخبرني أيضا بأن هناك مداخل ثلاثة الأولى هي التي دخلتها أنا، وهي حيث تأدية الطقوس، والثاني يؤدي إلى مخازن –أعتقد أنهم يحفظون فيها غلالهم فلم أسأله، فقد اعتقدت أنه سؤال غبي– والثالث يؤدي إلى قاعدة المسلة والتي أخذ بيدي ليريني إياها، كانت جميلة، ولا أعتقد أنني رأيت في حياتي مسلة–رغم كثرة ذهابي للمناطق الأثرية – بهذا الجمال !

كم كانت تلك النقوش الهيروغليفية المرسومة عليها آية في الجمال! كانت تحفة فنية كما يقول أولئك الفنانون التشكيليون المجانين، وحينما سألته عن سر بناء هذه البناية –المعبد– على هذه القاعدة المرتفعة أخبرني بأنهم يصنعونها على ربوة علية من أجل الفيضانات.

***

قبل يومين

ها هي سارة الجميلة تطل عليه بشعرها الكستنائي الطويل، هذا المنسدل على كتفها والذي يغازله أو هو المتربص به يسحثه على إلقاء بيت شعر في حقه أو في حق الأميرة صاحبة هذا الشعر، عاد خالد بالذاكرة ليتذكر حينما كانت تخبئ سارة وجهها بين خصلات شعرها حينما كان يحمر وجهها خجلا، نعم كانت تخبئ وجهها بخصلاته اتقاء الشمس التي تطاردها حيثما حلت، واتقاء الحب الذي يحمر له وجهها خجلا. إنها سارة الهزيلة الجسم القصيرة القامة المتسديرة الوجه.

نظر لعينها تلك السمراء التي يسكنها الحب وتستوطنها الرحمة، والتي يجري الدمع غزيرا من مآقيها كلما تذكرت أنه بعد هذا العمر الذي مضى لم يأذن الله لهما بطفل يهدهدانه و لم ينعم الله عليهما بعد بطفل يملأ البيت صخبًا.

بعدما رأت زوجتي وجهي الغاضب، وعبوسه غير اللازم حينما انتهيت من مكالمة صديق ما، طلبت مني أن نخرج في نزهة بسيارتنا، وأخبرتني بأن مزاجي قد تعكر، وقد كانت قد أعدت لي مفاجأة سارة ولكنها لن تخبرني إياها ما دمت على حالتي هذه، أخبرتها أنني الآن على مايرام، وكسوت وجهي بابتسامة علِّي أفوز بمفاجأة سارَّة كما تقول، تهون علي الكثير والكثير مما لقيت اليوم في العمل، ولكنها اعترضت، وقالت ابتسامتك هذه زائفة وحينما نخرج سأرسم ابتسامة حقيقية على وجهك هذا، وختمت كلامها بقبلة طبعتها على جبيني، وتركتني ذاهبة، ولت ظهرها، ثم استدارت فجاة لتقول لا وقت لدينا ألن تغير ثيابك هذه !

فانتفضت من مكاني مسرعا – رغم ما لحقني من تعب عمل يوم طويل في المستشفى – أسبقها إلى حجرة النوم لأقول لها لنرى من ينتهي أولا، ويكون جاهزا قبل الأخر، فأسرعت هي الأخرى،

دخلتُ أبحث عن ثياب تناسب الخروج ومفاجأة سارة، لكنها سبقتني إلى الحمام، وأخرجت لي لسانها قبل أن تغلق عليها بابه بسرعة البرق، لأجدني أضحك ضحكا هيستريا، ومتوعدا إياها بعدما تخرج.

ذهبت إلى المطبخ لأشرب بعض الماء، فقد كنت ظمآنا، فتحت الثلاجة وأخرجت قارورة ماء، ثم أخذت تفاحة ظللت أقضمها وأنا في طريقي إلى الصالة لأفتح التلفاز، لكني وجدت جريدتي المفضلة هناك فأمسكتها وأخذت أقلب صفحاتها ثم توقفت فجأة لأتذكر أن اليوم هو الثلاثاء، نعم، ولكن كيف نسيت هذا، ذهبت إلى أخر صفحة حيث مقال علاء الأسواني، وبينما أنا منغمس في قراءة المقال إذ سمعت زوجتي تنادي هي ياحبيبي دورك الأن!

فقلت:

– نعم، سآتى في الحال أخذني الوقت، وغرقت في جمالية المقال، لأجدها تخرج علي غاضبة لتقول:

–حبيبي، ليس الآن!

وكالعادة طأطأت رأسي، واستسلملت لما قالت، دخلت الحمام لأستحم، وخرجت مسرعا لأكمل المقال، لكنني لم أجد الجريدة من الأساس، ولكن وجدت زوجتي تبتسم إلي بمكر وتقول:

– وضعت ملابسك على السرير هيا بسرعة!

ابتسمت أنا أيضا، يبدوا أنها عرفت أنني سأخرج لأتم قراءة المقالة، فقد نسيت حقا أننا سنخرج اليوم، كانت هي في الصالة بينما أنا في غرفة النوم ثم ناديتها بصوت عال:

– حبيبتي!

فوجدتها تجيب:

– ماذا حبيبي ؟

فقلت ليست هذه الملابس التي اخترتها لنزهتنا، فوجدتها تقترب من الباب، وتدخل لتقول :

–حبيبي لقد اخترت لك أفضل شيء، لقد اخترت ما يناسبك، ثم هذه الملابس قد اشتريتها لك اليوم، فنظرت إليها مبتسما، فكم كانت الابتسامة كافية لإرضائها!

– كم أنت جميلة يازوجتي الجبيبة!

فقالت أعرف ولكن أسرع ياهذا، فضحكت وقلت مرددا كلامها:

– أسرع ياهذا ؟

ليس هكذا تعامل السيدة الجميلة العبد الذي اشتراه لها والدها، فوجدتها تضحك وهي تغادر الحجرة، بعد قليل خرجت إليها، فرأيتها تنظر إلي ثم أغلقت إحدى عينيها، وضمت أصابع يدها اليمنى إلى راحتها إلا من الإبهام، وهي تشير إلي ثم قالت:

– كما توقعت يناسبك كثيرا، تبدوا أكثر وسامة الآن... والآن هي بنا!.

***

خرجا من الشقة، ولما اقترب من سيارته، قالت له زوجته:

– ماذا لو ترجلنا ؟

فقال لها مبتسما:

– ماذا لو أرحنا أقدامنا من المشي فالطريق طويل؟

تذمّرَت وقالت :

–ولكنني أحب السير والآن الجو جميل ونسمات الهواء العليل والباردة هذه تريحني وتسعدني ألست تنتشي بهذه النسمات؟ ألم يعد يثيرك المشي، والنظر إلى السحاب، وانتظار القمر لتحدثه، لتقول له أيها القمر كم أنت جميل! لكن سارة أجمل منك ألف مرة، بل وألف ألف مرة، ألم تعد تسهويك القاهرة ليلا؟

–لا ياحبيتي ليس الأمر هكذا فقط كنت بالأمس شاعرا ومحبا والآن أنا طبيب وزوج ،ثم صمت لأستمع لإجابتها، لرد فعلها، فوجدته أيضا صمتا، ولكنه كان صمت صحراء توقفت فيها الرياح عن الحركة، صمت بحر هادئ فألقيت حجرا في مياهه الراكدة ليحركه، وتنفست في الصحراء، لتتحرك

رياحها فتنتبه إلي ثانية، وقبل أن تقول هي، وماذا الآن، قلت أنا وعاشق ومتيم بزوجة، حبيبة، سأسعى لتحقيق أحلامها، حتى آخر لحظة في حياتي، أو حتى لو كلفني هذا الأمر حياتي، وابتسمَت لتقابل ابتسامتي ابتسامة تخرج من باطن أرض قلبها، التي زرعت حبا لي وحان وقت حصادها.

***

وقفت فترة أنتظر انتهاء صلاتهم، ولما فرغوا، جاءني أحدهم، وجدته يمد يده إلي، ويقول:

- كيف أنت يا دكتور خالد ؟

ظلت عيني مصوبة نحوه، نافذة اليه، ونظري لا يقع على شيء غيره، ومن هول ما سمعت من لغته العربية في هذا المكان الغريب ظل فمي فاغرا للحظات، و لم أتفوه ببنس كلمة، لم أستطع أن أصف ذلك الرجل، رغم نظري الساقط عليه، فقط كل ما استطعت أن أراه، هو رجل بسيط، كان في غير طول أو قصر، معتدل القامة، واسع العينين مكتحلا، ومكتنز الشفاة، دقيق الأنف، طويل العنق، عريض الصدر رحابة لا ضيقا ولا حماقة، حليق الرأس، وإن كان يرتدي قلنسوة، ويرتدي زيا فوقه جلد نمر،عرفت بعد ذلك أن زيه هذا مصنوع من التيل، عدت من غفلتي هذه لما سمعته يقول :

-أسألك ياسيد خالد عن حالك ؟

أجبته بعد فترة صمت طويلة غير مصدق لما أسمع:

- بخير، الحمد لله ،أنا بخير ياسيد ...!

فابتسم ثم قال لى:

- إمحوتب، أنا إمحوتب.

وفى ظل دهشتي مما سمعت وجدت لساني قد سابق كل كلمة ونطق فقط هذه الكلمة ‘‘هرم سقارة ‘‘ ؟

***

الفصل الثالث

أمسَك إمحوتب بيدي، ثم قال:

– هيا لننطلق!

ماكان لي أن أعترض، سرت معه إلى حيث يريد، واستسلمت لأمره، وكنت حقيقة، مشوش الفكر، غائب الذهن، مشغول البال، وفى حيرة من أمري، ظل يتحدث، و لم أسمع منه كلمة واحدة، كنت أفكر في العلامة، نعم، لقد ظهرَت العلامة، الآن أنا في هذا العالم حقيقة، لقد لامسَت يداه يدي، ولكن كيف أتيت ولماذا أتيت؟!

سؤال كثيرا ما أرقني، لم أشا أن أسأله هذا السؤال الذي اعتقدت أنه سخيف إلى حد ما، فسيأتي الوقت لأسأله هذا السؤال ولكن ليس الآن...

وفي طريقنا مررنا على أولئك الرجال الأشداء، الذين يجرون تلك الأحجار الكبيرة، والشمس تغزوهم بشعاعها الحار، وأظنها ستحرق ظهورهم، وتشوي وجوههم عاجلا أم آجلا، ورمال الصحراء تكاد تحرق جلد أقدامهم، وقد بلغ العطش منهم مبلغا، هل سيموتون مكانهم هكذا، كما مات المصريون الذين حفروا قناة السويس، ثم ماتوا بعد ما أنهكهم العمل الجبري ودفنو مكانهم ؟!

سألت إمحوتب:

- لماذا هذا الذل إنهم سيموتون هكذا، حتى وإن كانوا سيأخذون أجرا مضاعفا ؟

فقال بلغة المدافع والمبرر:

– ياسيد خالد، إنهم يبنون حضارة، إنهم يسابقون الزمن، بعدهم سيعرف الناس معنى المدنية، والتقدم، والرقي، ستقف الشعوب خلفهم، سنبني بهذا الشعب قوة عظمى، حضارة دولة قوية تعلم الدول

جميعا، وتتعلم الشعوب من شعبنا، إصرار شعب، ومقاومة نفس، وتذليل صعاب، وإيمان بالمستقبل، غدا سيُرسمون على ورق الشجر، ستكتب أسماؤهم على الحجر، غدا سيُعبدون، غدا سيكونون الآلهة، سيأتيهم الناس من كل حدب وصوب، الحجيج سيقصدونهم.

- كيف تفهم معنى الحضارة يا إمحوتب؟ إذا كانت هذه المقابر التي سيبنونها إنما بنيت لأمر ديني، ألستم تبنون هذه المقابر لاعتقادكم بالحياة بعد الموت، إذًا هي لسبب ديني لا أكثر ولا أقل.

- حتى وإن كانوا هم يفكرون هكذا، فهذا لا يعني أنني أفكر على طريقتهم هذه، لست منهم وليسوا مني، لست مثلهم وليسوا مثلي، أنا إمحوتب، إنني أسعى لبناء حضارة، لأن أحدث معجزة يتحدث الناس عنها أبد الدهر، نموت نحن وتبقى أسماؤنا خالدة في التاريخ.

– هل هذا يعنى أن هذا الشعب متدين؟

ابتسم إمحوتب ثم قال:

– متدينون ؟! كيف ؟

- متدينون يؤمنون بحياة بعد هذه الحياة، والذي يحركهم لبناء هذه المعابد والجبانات هو وازعهم الدينى، وإيمانهم بالآخرة، بالغد الذي لا يراه، فهو ليس ماديا كحضارتنا الحالية، وكعالمنا الحداثي، الذي نعيش فيه ولذا فإنه يسعى لبناء هذه المقابر.

- لا، يا سيد خالد، ليس الأمر هكذا، فقط الملوك، وبلاطهم، الأسر الملكية، وطبقة النبلاء، أما أولئك العمال الكادحون الذين بالكاد يحصلون على قوت يومهم كل يوم بيومه فلا حظ لهم لافي الدنيا ولا فيما بعد الدنيا ويصنع الملوك والأسر ما يصنعون لأنهم يخشون الفقر، نعم يحتفظون بكل ما يملكون، ويضعونه بجانبهم في جباناتهم؛ لأنهم يخشون العوز.

قد يتعايش المرء مع ارتقائه من طبقة دنيا وسفلية إلى درجة أعلى، أما العكس فلا يستطيع الكثير التعايش معه.

يخشون أن يعودوا إلى الحياة وهم تربي الأيدي، يخشون أن يعودوا فلا يحكموا ولا يأمُروا ولا يَنهوا ولا يُعبدوا، يخشون أن يصيروا كأولئك العمال، الذين يحملون الملك على أعناقهم، ويجرون الحجارة من أقصى بلادنا في الجنوب إلى أقصاها في الشمال، يخشون الفقر؛ ولذا فإنهم يعملون له، ولأنهم ظالمون، تلذذوا بظلم هؤلاء العمال فإنهم يخشون أن يعودوا يوما، فيصيروا مثل هؤلاء العمال فيتجرعوا ويلات الظلم!

- أتقصد أن شعبك هذا غير متدين ؟

- لو كانوا متدينين فكيف يعبدون إلها ويبنون له قبرا وهل يموت الإله ؟!

- لماذا تشارك إذا معهم في هذه المسرحية الهزلية ؟

- لأنهم لن يثوروا على هذا الظلم الواقع عليهم؛ لأنهم يبحثون فقط عن قوت اليوم، وما داموا سيحصلون على قوتهم بعد أن يُقتلوا، فلا بأس أن يقتلوا مرات مادام قتلهم سيسكت أطفالهم الرضع وسيطعم عيالهم الجوعى وسيكسوا نساءهم وعائلاتهم من البرد القارص ومن الشمس الحارقة، نعم لا بأس إن هم قُتلوا مرات ومرات، الناس هنا يموتون من أجل أن يعيش أحباؤهم، يجوعون من أجل أن يُطعم أحباؤهم، يتعرون من أجل أن يُكسى أحباؤهم، الناس هنا طيبون، وأسوأ ما فيهم أنهم طيبون!

- وماذا صنعت أنت لهم ؟

- الكثير

- كيف؟

- سيعملون حبا أوكرها، سيسخدمهم الملك لخدمته قهرا وجبرا، وقد أردت أن أساعدهم قدر المستطاع. طلبت من الملك واستجاب لما نصحت، طالبت بكساء موسمي لكل فرد يعيش في المملكة، إلى جانب كساء الأعياد وبعض الأطعمة، التي طلبت توفيرها للشعب عامة، غير الاطعمة التي كانت توزع مثل الامت والبيصورو

- عذرا ولكن ماذا عن ال....

ابتسم إمحوتب ثم قال :

- آسف ولكني أقصد البلح والفول، وغيرها من الأطعمة الأخرى مثل :القمح والشعير والذرة، وبعض الفاكهة، وطالبت بتوفير بعض الأطعمة الخاصة للعمال والبنائين، الذين يشاركون في بناء أول لبنة لحضارتنا، طالبت بتخصيص طعام يساعدهم على العمل ويقوي عزيمتهم ويحفظ صحتهم ويسد جوعهم، طالبت بتخصيص وجبة صحية تحتوي على الفسفور والبوتاسيوم والحديد والنحاس والكالسيوم وتحتوى على فيتامين A وC وE وK وتحتوى الحبة الواحدة منه على ١٨جرام من البروتين و٤٠ جرام من الكربوهيدريدات و١٦ جرام من الألياف أظنك عرفت الآن أي طعام أقصد يادكتور خالد؟

ظل الدكتور خالد صامتا لفترة من الزمن، هو يعرف أن كل هذه الفوائد تعود على العدس ولكنه توقف، فسار إمحوتب يمشي لحاله، ولما انتبه إمحوتب لتأخر الدكتور خالد عنه عاد مسرعا ثم قال:

- ماذا هناك ؟

- ماذا هناك ؟ بل كان لزاما علي أنا أن أسأل هذا السؤال ؟ كيف تعرف كل هذا ؟ هل تنتمي حقا لهذا العصر؟ كيف يمكن أن.....

- ابتسم إمحوتب كعادته ثم قال:

- ياسيد خالد، أنا طبيب مثلك

- حتى ولو كنت طبيبا، وتنتمي لهذا العصر لا يمكنك أن تعرف كل هذا

- لماذا؟!

- لماذا ؟ أنت تسأل ثانية وأنا من يجب عليه أن يسأل؟

- سل!

- كيف عرفت؟ لابد وأنك اختطفت مثلي وجيء بك إلى هذا العصر، وأقنعوك أنك إمحوتب

هذه المرة ارتفع صوت إمحوتب وكانت قهقهته عالية ثم قال:

- ستعرف عني الكثير ما دمت معي، ولكن ليس الآن، ما أريدك أن تعرفه الآن هو أنني إمحوتب

- فليكن وإن كنت غير مصدق لما تقول !

استمر إمحوتب في حديثه عن طعام العمال البنائين وقال لقد استجاب الملك لما طلبت، فصرف وجبة لكل عامل وبنّاء، من العدس والبصل والثوم والتمر وهي وجبة متكاملة كما ذكرت

- ولكن إمحوتب، هل تعتقد أن الطعام كاف، هل هذا هو ما قدمته ؟

- نعم، أفهم إلى ما ترمي يا سيد خالد، ولكني كما أخبرتك أحاول أن أبني دولتي، أن أشيد حضارة، أن أجعل من دولتي وشعبي قبلة الحجيج، منارة تضيء الدنيا ومركزا للعالم. يوما ما ستتحدث الدنيا بأسرها عن هؤلاء سيكتب التاريخ أسماءهم**...**

و لم يتم جملته حتى قال خالد مستهزءا:

- هل تعتقد أن التاريخ سيكتب أسماء كل هؤلاء؟ إن كان لا يحفظ أسماءهم اليوم، فكيف سيخلدها وستبقى عالقة في ذهنة بعد ألف عام ! ياسيد إمحوتب، أنت تسعى لأن تخلد ملوكك، لأن يسطر التاريخ لهم صفحات في صُحفه. هذا أفهمه جيدا، ولكن هؤلاء العمال كيف ؟! لا، ياسيد إمحوتب، التاريخ لا يحفظ إلا أسماء الملوك وكثيرا ما نسي ملوك .

– لا، أخطأت يادكتورخالد، لم أكن أقصد ذلك، قصدت بالعمال هنا الشعب، والشعب سيذكره التاريخ أكثر من الملوك فالملوك كُثر، سينسى التاريخ أولئك الملوك، سيسقطون من دفتره لكثرتهم، ولن يتذكر إلا القليل وفي المقابل سيتذكر الشعب لأنها كلمة بسيطة قصيرة تجمع الملوك مع العمال، فإذا نسي الملوك على كثرتهم، فلن ينس الحضارة القائمة، سيذكر الدولة، ولكي أكون دقيقا أكثر، فإنه لن ينس اسم الشعب. نعم، إنه الشعب الذي لن ينساه التاريخ أبدا مادامت حضارتهم وأثرهم باق!.

– حسنا ولكن لم لا توفرون لهم كساء يحميهم من الشمس؟

– البلورة!

– ماذا؟

– لأنك لست واحدا منا؛ فلن تفهم طبيعتنا، ثم إن هذه الملابس تناسب بيئتنا، فهذه الملابس من الأنسجة الخفيفة؛ لتناسب الجو الحار هاهنا، ولونها الأبيض كذلك، إلى جانب كونها تمنع أشعة الشمس من اختراق ملابسهم، لكي لا تطل بشعاعها على أجسادهم.

يظهر خالد، استياءه، فهو يعلم أن كل ماقاله إمحوتب غير كاف لإقناعه وحتى أنه أراد أن يجادله في القطعة الواحدة التي يرتديها العمال، إذا كان إمحوتب يتحدث عن إطلالة الشمس أو شعاعها على أجسادهم، وحينما سعى خالد، لتغيير مسار الحديث اكتشف أنه على مقربة من عاصمة الحكم كما قال له إمحوتب.

– نحن الآن في من نفر، فلا تتحدث من فضلك، أنت ستتبعني فقط !

– ولكن الطقوس ؟

– ماذا؟

– أعني هل أصنع مثلما تصنع أنت حينما تدخل على الملك ؟

– لا لقد أخبرت زوسر بقصتك ولكن إن أردت فلا بأس!

دخل إمحوتب إلى غرفة قريبة من القصر، فانتظرته خارجا. غير ثيابه، خلع ذلك الجلد وارتدى جلبابا طويلا و... و لم اتذكر ماذا أيضا، فقد كنت مستاءا مما قال وكتمت غيظي، كيف يعاملون الشعب هنا بهذه الطريقة؛ بهذه العبودية التي لم تختلف كثيرا عن حضارتنا، حضارتنا أيضا مبنية على العبودية.

التشابه واضح وإن كانت لفظة العبودية قد اختفت في مناطق كثيرا إلا أن معناها لازال باق حتى وقتنا هذا.

أنا من كان يظن أن الفراعنة لم يعرفوا العبودية، كنت مغفلا كيف لم يعرفوا العبودية، وكيف بنوا هذه الأهرامات إذا لم يكن هناك عبودية، وإذا لم تكن هناك سخرة !

***

الفصل الرابع

رغم إتمامه العقد الخامس إلا أنه لم يبدو عليه بعضا من آثار الشيخوخة وليس هناك ما يدل على ذلك غير بطاقة شخصية مقيد بها تاريخ ميلاده، والحق أن الزمان لم يغِر عليه و لم يغير من تضاريس وجهه كثيرا.

وأما شعره الأبيض الذي أصبح هو السواد الأعظم فجدير بالذكر أن رأسه لا زالت تحتفظ ببعض الشعيرات السمراء وكأنها هنا هى الوقار لا الشعر الأبيض في حالته هذه.

كان الحب دافئا في عينيه العسليتين وكان لونها هو سر انجذاب سارة إليه فقد كان تعتقد بأن أصحاب العيون العسلية أذكياء وأصحاب عزم كما قرأت.

سار خالد وزوجته جنبا إلى جانب وأيديهم متشابكة؛ كعصفورين يحلقان في سماء صافية زرقاء، والكون يتراقص من أجلهم. أغلقت السماء أبوابها أمام كل الطيور وعلقت لافتة على جميع أبوابها ومداخلها " السماء اليوم محجوزة ورجاءا عدم الإزعاج ! "

نسائم الحب نضرت وجوههم، والابتسامة لم تقارقهم. عاد العمر إلى الوراء عاد العمر بهم عشرين عاما أو زد عليه قليلا، لم يكن دكتور خالد يعبأ لنظرات الناس من حوله، ما بال هؤلاء يحسدون رجلا خمسيني على سعادته هو وزوجته؟. وهل السعادة مرتبطة بعمر معين؟!

أثناء سيرهم استوقفهم شاب في أوائل عقده الثالث، أجعد الشعر، حاد الأنف، مربع الوجه، بشوشا، ألقى عليهم التحية، فردا عليه التحية ثم قال بلغة لطيفة مستطابة كأخلاقه الدمثة التي بدت لهما من أول وهلة:

- اسمحا لي أن أسال سؤالا، فنحن من برنامج "اعرف تاريخ بلدك" الذي يذاع على قناة "بلدنا" الفضائية!

لم يبد دكتور خالد أي اهتمام ونظر لزوجته، فابتسمت، وأومأت برأسها أن نعم، فأراد المذيع أن يتعرف على أسمائهم أولا فأجابت الزوجة بأنها دكتور سارة أستاذة في كلية الطب جامعة "القاهرة" وأجاب الزوج بأنه دكتور خالد، وأنه يعمل طبيبا في مستشفى "الأمل" الخاصة بالقاهرة الجديدة فابتسم إليهما وقال مداعبا :

- حسنا، بما أنكما طبيبان، فقد اخترنا لكما سؤالا سهلا في الطب!

نظرا إليه باهتمام، فقال لهما:

- من هو المهندس الفرعوني الذي بنى هرم زوسر؛ المعروف بهرم سقارة المدرج ؟

نظر دكتور خالد لزوجته وظل يضحك ثم قال باستهزاء:

- في الحقيقة هذا سؤال طبي تخصصي ولن نستطيع الإجابة عليه.

واستطرد تهكمه قائلا :

- هذا سؤال بسيط يجيب عليه تلميذ في الابتدائية إنه المهندس أمحوتب.

ابتسم المذيع إليه ثم قال بلغة منتصر، أو من أخطأ العدو رمى السهم نحوه فلم يصبه:

- لا ياسيدي الإجابة خاطئة !

نظر دكتور خالد إلى زوجته في شك وريبة فقالت هي للمذيع محاولة فك الإلتباس، أو منع اشتباك كلامي متوقع بين زوجها والمذيع:

- إنه إمحوتب !
- إجابة صحيحة دكتور سارة، اسمحي لي أن أقدم لكِ جائزتنا المتواضعة، هي وردة حمراء!

تساءل دكتور خالد:

- وردة... الجائزة وردة ؟!
- نعم، يا سيدي، فالإجابة كما ذكرت يعرفها طالب في الابتدائية، ولذا فالجائزة متواضعة، ثم إن الجائزة لا تقيم بسعرها وفى الحقيقة هي هدية وليست جائزة!

هنا تحدثت سارة مجددا تطالب بحقها في الهدية التي تشتهيها حقا:

- ولكن إذا كانت الوردة هي الجائزة، فلتكن بيضاء فأنا لا أحب الورود الحمراء !
- آسف دكتورة سارة، ولكننا لا نملك إلا الحمراء.

ابتسمت سارة ابتسامة مجاملة ثم قالت :

- حسنا، اسمح لي لن آخذها!

حاول المذيع أن يعتذر مرة ثانية ، فهذه هي المرة الأولى التي يرفض أحد ضيوفه قبول هذه الهدية على تواضعها:

- نحن أسفون حقا !

تركهما المذيع وولى ظهره ثم استدار إليهما بعد بضع خطوات قد خطاها بعيدا عنهما ثم قال:

- ولكننى أملك شيئا آخرا غير الورود!

فنظرا إليه باهتمام ثم قالا:

- ماذا ؟
- معلومة .... أعطيها لكما ... إمحوتب رغم أنه كان مهندسا، إلا أنه كان يشتغل بالطب أيضا مثلكما.

قال هذه الجملة ثم اختفى عن أعينهم.

حاولت سارة استرجاع الأيام الخوالي، فدغدغت ذاكرة زوجها قائلة :

– خالد من منا يحب الوردة البيضاء أكثر؟

فأجابها على عجل مكسوا برداء حب مهترئ:

– لا، أدري، ولكن يكفي حبيبتي أننا اجتمعنا على حبها، واجتمعت هي على حبنا !

– أعرف ولكن من منا يحبها أكثر ؟

– أنا ... أحبكِ أكثر !

– ابتسمت ثم قالت:

لا أصدقك!

– حسنا أنا أصدقك وأكذب نفسي

ردت بصوت شاجن، والدموع تأبى السقوط من محجرها :

– أعْلم أنك تحبني أكثر، حتى لو تذكرت أنا عيد زواجنا ونسيته أنت!

كانت جملتها الأخيرة هذه قد وقعت على أذنيه؛ فأعجزته عن التفكير ظل صامتا بضع ثوان يستدرك خطأه، أو بمعنى أخر يجهز دفاعه عن نفسه، فماذا عساه أن يقول، فهذا ذنب عظيم عند النساء، ذنب لا يغتفر؛ أن تنسى زوجتك وتنسى ماتحب وتنسى الأيام التي جمعتكم فنادرا ماتغفر النساء هذا الذنب، وإن غفرته فإن معاملتها لزوجها لا تكون كسابق عهدها، إلا أن سارة لم تكن من هذا النوع من النساء، وإن كانت قد تألمت حقا من نسيان زوجها لهذا اليوم؛ يوم رباطهم المقدس.

توقف عن السير ثم قال بصوت متهدج :

- آسف، حبيبتي كيف لي أن أنسى يوما كهذا!

فقالت مشاغِبة:

- لأنك تحبني أكثر ؟

فقال بخجل:

- حسنا، أنا آسف

ضرب الأرض بقدمية وقال متعجبا: كيف ذلك! ثم نظر خلفه فوجد خلفه رجلا على بعد ١٠٠ متر يبيع الورود، فانطلق مسرعا نحوه، كان يجري كطفل تائه يحاول أن يصل إلى أمه، والغريب أنه كان يجري برشاقة فتى مراهق لم يكن لأحد أن يسبقه، وليس كرجل قد أتم عقده الخامس، ولكن وللأسف باءت محاولته الأولى هذه بالفشل، وجثم الهم على صدره، فحينما وصل إليه لم يجد عنده غير الورود الحمراء. ندب حظه قائلا ألا يوجد غير هذه الورود الحمراء ماهذا الهراء ؟ ثم سأل البائع:

- هل من أحد هنا يبيع ورودا بيضاء ؟

فأشار البائع بيده إلى رجل أخر، فذهب إليه خالد، وما أن وصل إليه ووجد معه تلك الورود البيضاء حتى تهللت أساريره – فقد كان ذلك الرجل عجوزا يرتدي نظارة طبية وكأنها تعبر عن رزانته وهدوءه ورجاحة عقله وشعر لحيته البيضاء الذي كان يعبر عن حكمته – قال له خالد :

- أين أنت أبحث عنك ؟

- أنا ياسيدي ؟! لماذا؟

- لا أحد يبيع الورود البيضاء هنا غيرك!

– نعم، ياسيدي، فالرواج هنا للحمراء وليس للبيضاء؛أغلب الشباب يشتري الحمراء ويهديها إلى من يحب.

– ولماذا تبيع أنت البيضاء؟

– لأنني أرى أن الورود كالقلوب، والقلوب المحبة ينبغي أن تكون بيضاء صافية نقية خالية من أي شيء عدا الحب، الحب والحب فقط من يحق له أن يسكن القلوب.

– ولماذا لا يؤمن المحب بنظريتك هذه ويشتري الوردة البيضاء ؟

– لا أدري .

– ربما؛ لأنهم يرون أن الورود كالقلوب أيضا، ولكنها لن تعيش دون اللون الاحمر– الدم – لابد وأن يتدفق إليها الدم حتى تعي.

– أتقصد أنهم يعطون من يحبون قلوبهم حية ؟

– ربما.

– ولماذا تريد أنت الوردة البيضاء؟

– لأنني أعرف أن الدم قد انقطع عن الورود يوم قطفت.

– ولماذا تود أن تعطي من تحب وردة بيضاء، وردة بلا دم، وردة ميتة ؟

– لأنني مِت يوم أعطيتها قلبي، ولكن قلبي لم يمت هو حي فيها، فوردتي ليست ميتة و لم تذبل، بل زادت نضرة وحسنا وجمالا لما زرعتها داخل من أحب؛ قلبان في جسد واحد، تمددت جذور وردتي في أرض

من أحب، وأصبح من الصعب إن لم يكن مستحيلا قطف وردتي من هناك، فجمال الورود في رؤيتها مزينة البستان وعلى الأغصان وليس في قطفها.

ثم أخذ منه الوردة ورحل، ولكنه عاد فنظر إلى بائع الورود ثانية ثم قال:

– أتَعْلم؟ يقولون بأن "عمر بن الخطاب" قال لو كان لي الخيار بأن اختار، لما كنت غير بائع للأزهار!

أسرع خالد إلى زوجته، ورغم حماقته التي ارتكبها حينما نسى هذا اليوم العزيز عليهما، إلا أنه زاد الأمر سوءا بحماقة أخرى وهو تأخره عليها وتركه إياها تنتظره، فانتظارُ المرأةِ الرجلَ من الكبائر في دين الحب، إلا أنها قد غفرت له ذلك كله لما رأته يلهث ويمناه خلف ظهره، والحق أنها قد حزنت عليه وقالت بصوت هادئ وان كانت تخفي قلقا بداخلها عليه:

– ماكان عليك أن تجري هكذا، ماذا عسى الناس أن يظنوا؟

لم يرد عليها في البداية فكان يتنفس بسرعة منعته من الحديث، وما أن انتظمت انفاسه حتى قال:

– أنا آسف على كل شيء، آسف على كل لحظة لم أفكر فيها في سارة، آسف على كل لحظة سعيدة لم أشاركها إياك، آسف على كل دمعة زرفتها عيناكِ بسببي، حتى ولو لم أرها، آسف بعمر زواجنا بعمر خمس وعشرين سنة، آسف بحجم عمري كله اثنان وخمسون سنة، آسف بحجم الكون وبعمر النجوم!

لم تستطع سارة أن تجاري كلماته العذبة هذه، ولا اعتذاره هذا، المقبول مقدما، ولكنها قالت:

– كم أنت جميل يا خالد ،ليس هناك ما يقال الآن!

– لا بل يوجد ما يقال

– ماذا؟

أظهر يده من خلف ظهره وأعطاها وردتها الأثيرة، التي تحبها، الورة البيضاء ثم قال :

- لست فصيحا في انتقاء كلمات تدل على مدى حبي، أو اعتذاري ربما لست رومانسيا بما يكفي، ولكن وردتي هذه ستخبرك كل شيء فقط استمعي إليها!

تنهدت سارة ثم قالت:

- أوووووه خالد، كم أنت جميل، أشكرك، أنا حقا عاجزة عن الكلام أمامك يكفي الصمت، أن أستمع إليك هذا هو كل ما أريد أن أملكه، وقد ملكته يوم وقعت فريسة حبك أو يوم وقعت أنت في شباك حبي، لا أجد كلمة تستحق أن يخرجها فمي وينطقها لساني وشفتي إلا كلمة واحدة، كنت ولا زلت أرددها منذ خمسة وعشرين سنة.

- أحبك حتى يصل الحب إلى منتهاه وإن كنت لا أجد في حبك المنتهي، ولا أعرف لقصتك نهاية ولكني واثقة من أني لن أنتهي من حبك يومًا ما، وحينما أموت أظنني سأظل أفكر فيك .

***

الفصل الخامس

حينما دخلت إلى المكان، الذي يسكنه إمحوتب كانت هناك رائحة كتب نفاحة، ولا أدري إن كان هذا حقيقة أم ماذا، لكني حقيقة شعرت وكأن الغرفة التي دخلناها مشبعة برائحة الورق البردي .

حينما جن الليل كنت أرى شخصا انطوائيا، ليس هذا إمحوتب، الذي كنت أحدثه طوال النهار، ليس هذا هو إمحوتب الذي كان يضحك ويبتسم ويتكلم، إنه شخصا آخر، ينكب على كتب وموسوعات وأوراق بريدية لا أعرف ما هي، فأنا لا أعرف الهيروغليفية، يتروي إمحوتب عن الناس، يتفرغ للعلم ولكن أي علم، هذا ما لا أعرفه، كنت أرى في وجهه بشاشة ترجمت لصفاء قلب ورأفة ورحمة لا كذبا وخداعا ونفاقا، رأيت فيه سمت الصالحين، إلا أنني لازلت أتعجب من عربيته هذه فهي بغير لحن ولا ذلل.

كانت غرفته هذه بسيطة، وقد لا تكون هكذا مقارنة بغرف وبيوت الفقراء، بها بعض الأسرة وخزانات خشبية والكثير من الورق البردي، ولأنني كنت متعبا و لم أقوَ على فعل شيء، وقد لاحظ إمحوتب هذا، فقد أشار إلى أحد الأسرة في الغرفة التي كان يجلس فيها فقد كان هناك أكثر من سرير، ولا أدري لماذا! ارتميت إلى السرير الذى أشار إمحوتب إليه، أردت أن أريح جسدي المهزوم من رحلة إلى بلدي القديم، أو من زيارة إلى أهلي القدامى، لم أشعر بشيء قط، وعلى ما يبدو فإنني قد غطت في نوم عميق، لا أدري كم من الساعات مرت وأنا نائم، ولكننى استيقظت قبل شروق الشمس وتنفس الصبح لأجد إمحوتب على حالته التي تركته عليها قبل أن أنام ولكنه الآن جالس على مقعد خشبي يكتب شيئًا ما، اقتربت منه، فانتبه لحركتي وحياني ثم قال:

- سأعد لك طعاما لا أدري كيف نسيت هذا فأنت لم تأكل شيئا بالأمس.

وفى الحقيقة أنني لم أكن جائعًا، وحينما هَمَّ بالوقوف سألته:

- هل لي أن أسأل ماذا تصنع ؟
- أقرأ بعض الكتب وأكتب بعض الأفكار
- نعم، أعرف ولكن ماذا بالضبط ؟

لم يجب إمحوتب على سؤالي، وتركني في حيرة من أمري، ذهب إلى غرفة آخرى، ولا أدري لماذا لا يجيب على بعض أسئلتي، لم تمر بضع دقائق، حتى وجدته قادما نحوي وفى يدية تلك الأواني الخزفية، التي نرى صورها في الكتب التي تتحدث عن الفراعنة.

حمل إلي بعض من الحليب والجبن وخبزا ووضعهم على مائدة صغيرة، ثم عاد ثانية بسلة فواكه، كان بها تين وعنب وبطيخ، وأنا الذي كنت أزعم أنني لست جائعًا وجدتني نهما على غير العادة، قضيت على الأخضر واليابس، كان إمحوتب ينظر إلي بشك وريبة ثم يبتسم. بعدما فرغت من وجبتي هذه قلت له:

- ألا تنام ؟

وعلى ما يبدو فإن سؤالي هذا كان كسابق الأسئلة التي لا إجابة لها فقلت له ممتعضا :

- إذا كنت لا تجيب على أسئلتي فلماذا تأويني وتطعمني، لماذا أنا هنا من الأساس، كيف وصلت أنا إليكم وكيف تعرفني وتعرف العربية؟ هل لك أن تجبني على أسئلتي هذه؟

ولكن وللأسف كان رده باردا كالثلج و لم يغن أو يسمن من جوع فقد قال:

- حينما تعود ستجد إجابة على كل أسئلتك، جملته الأخيرة هذه صعقتني وصدمتني فأنا لا تعنيني العودة، بقدر ما تعنيني الإجابة على هذه الأسئلة التي أرقتني فقلت له متحديا إياه وراغبا في معرفة شيء قد يعني لي الكثير:
- ولكنني أريد أن أعرف شيئا واحدا الآن، هل هناك شخصا آخر قد أتى إلى عالمك هذا غيرى؟

ابتسم فعلمت أن هناك غيري فقلت له:

- من إذاً؟

هنا وجدت أنه قد حلت عقدة لسانه أخيرا، ثم نطق قائلا "فولفجانج هيلك" Wolfgang "helck" وياليته ما نطق، ومن فولفجانج هذا الذي تحدث عنه فقلت له:

- أعني شخصا مصريا!

لم يجب فآثرت الصمت و لم أحدثه أو أسأله عن شيء آخر في هذا اليوم، انطلقنا بعد ذلك إلى حيث البنائين، ورأيتهم وهم يشيدون اللبنة الأولى في بناء الحضارة التي تحدث عنها إمحوتب هرم؛ جبانة للملك زوسر قال إمحوتب لي إن هذا سيكون شيئا عظيما لأن هذا البناء سيكون على غير العادة فكل قبور الملوك من قبل لم تكن هكذا سيكون هذا شكلا مثلثا هرميا ولأول مرة سنستخدم الحجر في مثل هذا البناء وسيكون له ستة مصاطب وسنكسوا هذا البناء بحجر جيري أبيض كان إمحوتب فرحا وأردت أن أشاركه فرحته هذه قدر المستطاع.

أراني إمحوتب بعض الرسومات فحسبتنى أقف أمام إمام المهندسين. أين المهندسون من هذا العملاق، إنه الأستاذ وهل كانت الهندسة والرسومات بهذا الإبداع منذ ذلك الزمن البعيد! فلماذا تأخر مهندسوا حاضرنا عن ركب هذه الحضارة الإمحوتبية، نعم، لقد تأخروا كثيرا وتأخرهم هذا عن

إمحوتب يشبه تأخر دول العالم الثالث عن الدول المتقدمة وإن كانت كلمة تخلف عنها تليق بالمقام فهم تخلفوا كثيرا.

رأيت في إمحوتب الإبداع والتفاني في العمل، كان رجلا بهمة ألف، كان متفانيا في عمله جسورا مقداما ليس لأحلامه نهاية، ولا تحدها حدود، وقلما أجده ينام. نعم، فلم يكن ينام إلا قليلا فقد راقبته ثلاث ليال متتاليات بعد ليلتي الأولى التي نمت فيها كثيرا، فلم يكن ينام إلا ساعة من الليل ثم يستيقظ ثانية ليتم مابدأه وينجز ما أراده.

***

فى اليوم الذي دخلت فيه مع إمحوتب إلى زوسر لم أر شيئا غريبا كان الجو ساكنا وإن كنت قد انقبضت لما رأيت الملك ولا أدري لماذا! أكان خوفا وريبة أم ماذا، أشياء لا نستطيع تفسيرها في وقتها ولكننا قد نفهم سببها بعد ذلك كان الجوا معبأ برائحة الذهب، و لم يكن هناك شيئا غريبا أو حتى شخصا غريبا قد ظهر في عالمهم هذا، فكأنهم لم يروني و لم يتعجبوا لحالي وشكلي وملبسي، فأنا غريب ولا أنتمي لهم بالكلية، ولكن هذا لم يلفت انتباههم إلي، وأعينهم لم تلاحقني أو تحاصرني، يبدو أن الملك قد سرق مني الأضواء أو أنني في حضرة جمهوره وليس لي هنا جمهور، كان الملك يتحدث إلى إمحوتب وكان إمحوتب يشرح له بعض الأشياء وأشار إلي في وسط حديثه لكن شيئا لم يتغير، بقيت أنا كصنم لم يتحرك وحتى لم يلق إعجاب الجمهور من حوله، كان للملك لحية عجيبة قال لي إمحوتب بعد ذلك أنها مستعارة وكذا الشعر الأسود المستعار الذي اتخذه، والذي كان يعلوه تاج الملك أو ذلك اللباس الرأسي الملكي المعروف باسم النمس كما أخبرني إمحوتب كانت زيارتنا للملك سريعة حتى أنني كنت في انتظار أن أرى كيف يدخل إمحوتب على الملك من مراسم وطقوس وغيرها من الأشياء الأخرى، ولكنني لم أجد شيئا من هذا القبيل، وسألت إمحوتب عن هذا بعدما

خرجنا فقال أنا وزير الملك فقلت في قرارة نفسي وزير الملك ؟ هل وجود وزير الملك يحجب عني أن أرى تلك المراسم التي كنت أتوقع مشاهدتها والتي تحدثت عنها الأفلام !

***

بعد أسبوع من العودة من عند إمحوتب

لم أذهب إلى المستشفى طيلة هذا الأسبوع، ظللت أبحث عن إمحوتب هذا عن شخصيته وعن أعماله عن حياته وموته، كان صديقي "علي" قد اتصل عليَّ ليطمئن على صحتي ثم أخبرني بأن هناك زميلا لنا واسمه دكتور "إسلام حسين" وهو باحث في جامعة"M I T " الأمريكية وقد نال درجة الدكتوراة في علم الفيروسات في جامعة كامبيدرج ''Cambridge'' البريطانية وقد رفع مقطعا له على اليوتيوب يتحدث فيه عن الاختراعين اللذين سمعنا عنهما، والحقيقة أنني كنت قد نسيت هذا الأمر وأعرف أن الأيام حبلى بالعديد من المفاجأت، وأنا انتظرت كغيري، وذهبت لأتم بحثي عن إمحوتب ورأيت كيف أن الإغريق قد عرفوا قيمة هذا الرجل العظيم حتى أنهم عبدوه وفى العصر الروماني أيضا عُبد إمحوتب على أنه هو الرب الإغريقي "اسكلابيوس" كما أنه رب أو إله الطب وإله الشفاء أيضا كما أن أقدم وأشهر مخطوطة وبردية عند الفراعنة والتي كانت تشمل بعض الأمراض وطريقة علاجها نسبت إلى إمحوتب وهي مخطوطة "ادوين سميث" "Edwin Smith Papyri "

وهذه المخطوطة وإن كان يرجع تاريخها إلى ١٧٠٠ قبل الميلاد، إلا أن البعض قال بأنها مأخوذة عن النص الأصلي الذي كتبه إمحوتب وهذه المخطوطة تصف كثيرا من حالات المرض وطرق علاجها فهذه البردية التي تمتد إلى خمسة أمتار، قد تبين لعلماء الآثار أنها تصف كيفية التعامل مع ٤٨ حالة جراحية مرضية منها: جراحة الرأس والرقبة والأكتاف والصدر والثدي وحالات الكسور.
ومن المعروف أن إمحوتب كان يستخرج العقارات من النباتات، ولإمحوتب معبد في سقارة، حيث هرم زوسر؛ معروف باسم معبد إمحوتب يأتيه المرضى من أنحاء العالم حيث أصبح مصحة يقصدها

الناس —المرضى– بعد السمعة الطيبة التي عرفت عنه وانتشار الكثير من الأخبار عن نجاحه في شفاء العديد من الأمراض–المعبد– وكنت كلما أقرأ شيئا جديد عن إمحوتب، أعلم أن هذا قليل في حق هذا الرجل، لقد مكث معه شهرا كاملا أرى ما يصنع، وإن لم أفهم كثيرا مما يصنع إلا أنني وجدتني أمام أمة.

مستحيل أن يكون إمحوتب هذا شخصا واحدا وإن كان فهو يحمل طاقة وهمة ألف أو ما يربو على ذلك، لن أنسى ذلك الرجل ما حييت!

***

بعدما خرجت وإمحوتب من عند زوسر، كانت هناك بعض الأسئلة الطارئة والتي كنت أريد لها إجابة فاصلة من إمحوتب، وأولها عن زوسر هذا، لأنني كنت أرى فيه قداسة من شعبه وكأنه إله والحق هو إله عندهم أو نصف إله، وكذا كل الموك عندهم فليس زوسر فقط ولكن حديثي لم يكن عن الدين هذه المرة بقدر ما كان يصب في بوتقة سياسية، وكأنني أعيش عصري وأسال أسئلة في حاجة لإجابة عليها، ولما وجدت هنا نفس الأمراض التي نعاني منها في عصرنا نحن أردت فقط أن أقف على جذور وأصل المرض عسى أن نستأصله.

– إمحوتب لماذا تعتبرون ملككم إلها ؟

– ولماذا تقدسون أنتم رئيسكم وتجعلون منه ديكتاتورا؟، أوليس الديكتاتور إلها أيضا ؟

– أتعلم ماذا قال فولتير ؟

– ماذا؟

– من الصعوبة أن تحرر السذج من الأغلال التي يبجلونها!

– وماذا إذًا ؟

- أظن أن من بينكم الكثير والكثير من الحكماء، الذين قد يردعون الحاكم وليس حكماء اليونان بأفضل منكم، فقد تحايلوا على ملوكهم المستبدين وجعلوهم يقبلو فكرة الإشتراك في السياسة، عندما أحيوا عقيدة الإشتراك في الأولوهية فجعلو للعدالة إلها وللحرب إلها وللأمطار إلها وللحرب إلها، ثم جعلوا في النهاية لإله الآلهة الحق في الفصل بين الآلهة جميعا إذا ما تنازعوا، وهذا هو ما سهل خضوع الحكام للشعب ووقوفهم على رأيهم والاستماع إليهم.

- قد تكون محقا ولكن لماذا لا تصنعون أنتم هذا ؟

- لأن أكثرنا أغيار، عوام، حتى المثقفين أيضا عوام وشعبنا كما قال كاتب وطبيب مصري عزيز على قلبي، وهو ملهمي، وكاتبي المفضل، وصديق مقرب يدعى (أحمد خالد توفيق) : "ينحني لأول سوط يفرقع"

- وبما أننا آباؤكم، فمن البديهي أن تفهم أن هذه الصفة قد انتقلت إليكم عبر جيناتنا هذا ما تود أن تقوله أليس كذلك ؟

- نعم، هو كذلك، ولذا أود أن أسألكم لما تظلمون أنفسكم وتظلموننا معكم ؟

- أليس كاتبك المفضل وصديقك المقرب دكتور (أحمد خالد توفيق) هو نفسه من قال بأن المصريين لم يُظلموا وإنما نالوا ما يستحقون بسبب تركيبهم العقلي والنفسي الذي لا يسمح بالتقدم ولا يستطيعون إلا أن يكونوا فقراء مهانين خائفين إلى الأبد ؟

صمت خالد طويلا و لم يكن صمته تعجبا من كون إمحوتب يعرف ذلك الكاتب؛ لأنه أصبح يتوقع أي شيء من إمحوتب ولكن لتعجبه من كونه قد نسي هذه الجملة التي قرأها فيما مضى، ثم عاد ثانية ليقول لإمحوتب شيئا قد تذكره:

– أتعلم يا إمحوتب حكامنا وقح كما قال غسان يسرقون رغيفك ثم يعطونك منه كسرة ... ثم يأمرونك أن تشكرهم على إكرامهم ... يالوقاحتهم!

– نعم يالوقاحتهم ولكننى نسيت أن أخبرك شيئا، لا تنظر للأمور ببلورتك أنت ؟

– ماذا ؟ أي بلورة ؟ لا أفهم !

- بلورتك؛ عينك ونظرك للأمور، لا تحكم أو تقيس أمرا لديك لتطبقه على عصرنا نحن

- أليست الديكتاتورية كما قلت أنت إلها ايضا ؟

- نعم ولكن ما كان ممكنا في عصرنا لا يمكن أن يطبق أو يصلح لعصركم، ولا يمكنك أن تطبق ما تراه في عصرك علينا أو على العصور السالفة

- أنا لا أريد أن أطبق منهجا بعينه أو نظرية معينة أنا فقط أريد الحرية وأكره العبودية أريد الحق وأنقم الباطل أريد المساواة لأني أبغض التمييز أريد العدل وأخشى الظلم هذه مبادىء عامة إذا تشكلت مع أي نظام يحميها ويقف معها ويعضدها فأنا معه قلبا وقالبا!

- أتعلم ماذا صنعت لأحقق هذه المبادىء ما استطعت ؟

- ماذا؟

- لقد أقنعت زوسر بأن يصدر دستورا يحد فيه من صلاحياته، أليس هذا ما صنعه حكماء اليونان؟ أنا أيضا صنعته، ولكنك استعجلت الأمر و لم تستمع إلي وحكمت علي حكما مسبقا جائرا، وهذا سببه بلورتك الضيقة!

- دستورا يحد من صلاحياته كيف هذا ؟

- نعم "حب ست" وقد كانت ثلاثة عشرة مادة فقد تنازل بموجب هذه المواد عن بعض صلاحياته لرئيس البلاط الملكي وللكاهن الأعظم ولي أنا إمحوتب، وقد أقرت هذه المواد أيضا بوضع حد أقصى

لفترة الحكم فكانت ثلاثين عاما كحد أقصى للحكم وقد زادت بذلك أيضا صلاحيات الكهنوت أليس هذا شيئا جيدا ؟

- نعم جيد ولكن لم أكن أعرف هذا.

- نعم بلورتك!

- ولكن حتى بعد كل ما سمعت فهذا غير كاف.

- معك حق.

- إذًا؟

- إذًا نعود إلى منزلي فيبدو عليك آثار التّعب !

***

الفصل السادس

استيقظت من نومي فزعا، كنت أنادي وأصرخ، أنادي عليه وأصرخ باسمه، لكنه لم يستمع ولم يعد، كان وجهي محمرا، وجسمي كله قد تبلل عرقا وشعرت بالبرد في أناملي، ولا أدري كيف اجتمع البرد مع زخات العرق هذه، شعرت وكأن في جسمي فصلان متناقضان اتفقا عليَّ، اجتمعا عليَّ، ودقات قلبي تسارعت وكأن السباق قد بدأ لتوه، لم أستطع أن أوقف أو أبْطئ حركة أنفاسي المتسارعة، أغمضت عينيّ، حاولت أن أهدىء من روعي، أو أن أعود إلى ما كنت عليه، لكن لا جديد يذكر، فلم أعد إلى ماكنت أريد، ولم أصل إلى مرادي، انتظرت كثيرا لكن لا شيء مما أردت قد حصل أو تحقق، وبعد قليل انتظمت أنفاسي وهدأت دقات قلبي وتنفست الصعداء، كانت سارة قد شعرت بي فقامت قلقة علي، ونظرت إلي في ريبة ثم قالت ماذا هناك ياخالد كيف أنت ؟

فأجبتها :

- لقد رحل إمحوتب وتركني، ناديته ولم يسمع ندائي، رحل وكأن شيئا لم يكن، لم يعبأ لندائي وحينما ركضت وراءه وذهبت إلى حيث كان، بدا لي وكأنه سراب .
- عن ماذا تتحدث ؟
- إمحوتب ألا تعرفين إمحوتب؟
- أي إمحوتب ؟
- أي إمحوتب ؟! إمحوتب ياسارة إمحوتب .
- أتقصد إمحوتب الفرعون ؟
- نعم

- حبيبي إنه حلم لا عليك .
- لا ليس حلما مستحيل أن يكون حلما، لقد قضيت معه شهرا كاملا، وتعلمت منه الكثير.

بدا وكأن سارة قد تشككت كلامه ولذا فقد علا صوته وهو يتحدث إليها، وكأنه أراد أن يقول لها ألا تصدقيني؟! أنا لا أكذب لقد رأيت إمحوتب حقيقة هو من عرفني بنفسه .

- حبيبي هدئ من روعك
- ماذا تظنيني ؟ لا زلت عاقلا، لم أفقد عقلي بعد ياسارة !.
- حبيبي، لا أقصد، ولكن الأمر قد يكون له علاقة بالسؤال الذي طرحه عليك المذيع قبل يومين .
- لا أظن لقد كان ذلك حادثا عارضا، ثم إنني لم أفكر في هذا الأمر، و لم أوليه أي اهتمام .
- لقد قال لي حينما تعود أخبرهم أن اخلعوا عنكم لباس الأقدمين ولما سألته عما يعني بلباس الأقدمين قال أفكارهم فقلت له لماذا قال لأن الكثير منها ليس صحيحا، وقال فتش أنت عن الحقيقة، واعلم أنه ليس هناك حقيقة مطلقة، ولكن فتش عن الحقيقة فحسب، وإياك أن تمنع غيرك من إبداء رأيه.
- يبدو أنه لا يعرف أن التفكير في وقتنا هذا يدمر الصحة ويسبب الوفاة !.
- أوتعلمين لقد أخبرني أنني ربما أعود إليه يومًا ما !.
- ولماذا تريد أن تعود ؟ هل ستتركني ؟
- لا فقط أقصد ......
- حبيبي لقد كان حلما، ولا داعي لأن تجعل هذا الأمر يأخذ حيزا كبيرا من تفكيرك فيه، أو يشغلك عن عملك لقد حدث وانتهى .

لم أكن لأعترف بأن هذا حادثا وانتهى، كنت على يقين بأن ماحدث حقيقة ذهبت أبحث وأجمع معلومات عن إمحوتب هذا الذي قابلته وتعلمت منه الكثير، إمحوتب هذا العظيم، لم يكن هناك شيئا

غريبا قد قرأته عن إمحوتب إلا سطرا واحدا جعلني في حيرة من أمري وقادني إلى الجنون، وطلبت من زوجتي أن تقرأه هي أيضا، ولا أدري إن كان هذا حقيقة أم ماذا، هل سقط إمحوتب من التاريخ ؟

" تاريخ إمحوتب غامض من حيث ظهوره واختفائه، فعلى الرغم من الإبداع الفني الذي أحدثه في العمارة واكتشافاته الطبية العديدة، نجده يختفي بشكل غريب وغامض جدا من التاريخ الفرعوني بحيث لم يعد يذكر أي شيء عنه وكأنه لم يكن موجودا من قبل !! ومما يثير الاستغراب أكثر هو اختفاء قبره والكتب التي ألفها مما يجعل اختفاءه بهذا الشكل الغامض لغزا بحد ذاته! "

ظللت أنظر إلى زوجتي وتنظر هي إلى باستغراب بعدما قرأنا هذه الجملة أكثر من عشر مرات، وفى النهاية صمتَت و لم تتكلم، وحينما تكلمت قالت :

- هيا بنا، سأعد الفطار حتى لا نتأخر عن العمل
- لن أذهب
- لماذا ؟
- أظنني متعبا بعض الشيء
- حسنا سأعد لك الفطار، وأبقى معك، سأتصل بهم في الكلية لأعلمهم أنني لن أحضر اليوم، يجب أن أبقى معك
- لا عليك، فالأمر لا يستدعي كل هذا القلق، أنا بخير ولكن فقط أريد أن أستريح قليلا
- واثق أنت من ذلك ؟
- لا تخافي، لو أن هناك ما يستدعي بقاؤك لطلبت منك، أنا على خير حال والحمد لله ، هيا الطلبة في انتظارك !
- حسنا

***

أيقظني إمحوتب باكرا على غير العادة، ولا أدري مالذي حدث، كان مرتديا ثيابه تلك الطويلة المصنوعة من التيل، وقد تأبط بعض الأوراق البردية، وحمل معه صندوقا خشبيا فقلت له:

ماذا هناك ؟

فقال:

- سنذهب إلى مكان ما

فقلت له متعجبا:

- الآن ؟!

فرد:

- نعم، ولكن أسرع قبل شروق الشمس !

انطلقنا سويا، وفى طريقنا بدأ هو الحديث على غير العادة، دائما ما كنت أنا من يبدأ الحديث، أقصد الأسئلة، ثم سألني :

- صف لى حالكم اليوم؟

- نعيش بين هراوة الظلم وسيف الاستبداد ورصاص الطغيان وحكم الجور وكلمات الامتهان

- وكيف تعيشون ؟

– أما الحكماء فمنهم من دعا إلى الصبر، ومنهم من سأل الله القبر، وأما العلماء فقد هاجروا إلى أرض خصبة تقبل بذورهم وغرسهم، وأما الأغنياء فيأكلون لحوم الفقراء نيئا على غير جوع، ويرتوون بدمائهم الساخنة على غير ظمأ، وأما الباقون فيعيشون بالمقاومة على أمل التغيير، أو بالسعي على أمل الهجرة.

–وماذا أيضا ؟

– الباقون أموات وليسوا أحياء !

– هل تحب وطنك ؟

– ولماذا هذا السؤال الآن ؟

– فقط أجب على سؤالي !

– نعم أحبه ولكن ...

– ولكن ماذا ؟

– أردت أن لا أتخلى عن وطني، ولكنه هو من تخلى عني، كنت أريده ولكنه تبرأ مني وأنكرني، لا، لم ينكرني، فقط وأَدَنِي، قتلني حيا، أتعلم تقول أحلام مستغانمي "كنا نريد وطنا نعيش فيه فصار لنا وطن نموت على يديه".

– أتعلم ماذا قال فولتير ؟

– ماذا ؟

– خبز الوطن خير من كعك الغربة !

– هذا إن كنا نمتلك الخبز؟!

– لا تتخل عن وطنك حتى لو تخلى هو عنك !

– ليس الأمر بهذه السهولة.

– أتعلم كل الملوك كاذبون إياك أن تصدق ملكا.

– الرئيس ؟

– نعم

– لماذا ؟

– لأنهم كلهم أُشْربوا، وطَعمُوا تعاليم ميكافيلي، فهذا "موسوليني" قد اختار كتاب "الأمير" موضوعا لأطروحته التي قدمها للدكتوراه إن كنت تعلم، وهذا "هتلر" الذي كان يقرأ هذا الكتاب، كل ليلة وغيرهم الكثير والكثير.

– ولكن ليس كل الحكام، لأن الكثيرين منهم لا يعرفون ميكافيلي هذا، ولا نظرياته وخصوصا من حكام العرب.

– بل الكثير، فجل الحكام ينفذون سياسة ميكافيلي عن علم، وقصد، أو جهل، وفطرة- فطرة ظالم- ولكنهم في النهاية ينفذون تعاليمه، وحتى حكامكم العرب ينفذونها، بل إنهم بارعون في هذا الشأن، فيُظهرون لك الود والحب، فالحاكم يظهر لك ولشعبه أنه هو الحمل الوديع، ولكنه حقيقة هو الذئب ، ذئاب تفترس شعوبها، وقباءلها، أتعلم؟ لم أرى في حياتي، أو أقرأ أن قطيعا من الأسود، أو الذئاب قد تقاتلوا فيما بينهم، أو قاتل الأسد، أو الذئب أحدا من قطيعه، إلا القليل، و لم أر، أو اقرأ أن سربا من الطيور الجارحة قد تقاتلوا فيما بينهم، أو قاتل أحدهم أفراد سربه، وما كان من قتل الغراب

لأخيه إلا ليتعلم الإنسان كيف يواري أخاه بعد أن يقتله، ولولا علم الله أن الإنسان سيقتل أخاه الإنسان لما أرَاه كيف يقتل الغراب أخاه، وكيف يدفنه. أحيانا أعتقد أن الإنسان هو من علم الحيوانات القتل، وإن كانوا هم لا يقتلون إلا ليأكلوا فكأن عذرهم مشروع، مشروع كذبح الإنسان الحيوانات ليأكل، وهنا يتشارك الإنسان مع الحيوان، لكن ما قرأته وما رأيته أن الإنسان قد سعى في الأرض يهلك الحرث والنسل، عاث في الأرض فسادا وإفسادا، يقاتل الحاكم المحكومين إذا اختلفوا معه في أمر، وكما قلت حكامكم تعلموا كل شيء من ميكافيلي .

– وماذا عساي أن أفعل إذا ؟

– حذار من حكامكم !

– إمحوتب، دعك من الحكام الآن، أردت أن أسأل سؤالا واحدا لماذا أنا هنا ؟

– لتتعلم !

– أتعلم ماذا ؟

– ألم تتعلم شيئا هنا ؟

– أعتقد أن شهرا هنا كاف لتعليمي الكثير ولكني أردت أن أعرف لماذا جئت إليكم وكيف جئت ؟

لم يرد علي ثم قال بصوت متهدج:

–سنفتقدك كثيرا يادكتور خالد !

نظرت من حولي، فوجدتني عند تلك النقطة، عند ذلك المكان الذي استيقظت فيه، يبدو أنني سأرحل حقا،وبالسرعة التي أتيت بها إلى هذا العالم، ها أنا أفارقه، حتى قبل أن أعرف كيف أتيت،

ولا لماذا أتيت، أخشى أن يكون حلما، حقا لا أعلم هل أخشى أن يكون حلما، أم أنني أود أن يكون ما حدث هذا حلما، وسأعود، تغار علينا لحظات الوداع الآن وجماليتها التي توقفني عن التفكير في الحلم الذي كان حقيقة أو في الحقيقة التي كانت حلما نظرت إلى إمحوتب، وقبل أن يتركني ارتميت إلى حضنه، ووجدتني قد طوقته بذراعي، وعانقته عناقا حارا، عناق طفل يتشبث بصدر أمه، حتى أنني سمعت قطرات ماء تتساقط على الرمال، و لم أتبين أكانت هذه دموعي أم دموعه هو! دائما ما كانت النهايات تُبكيني، وأبكيها دراميا، لكنها الآن حقيقة غير مصطنعة. فتح إمحوتب الصندوق الخشبي الذي كان يحمله، وأخرج منه كرة صغيرة، كانت مسجية بقماش من التيل، لقد كانت بلورة، وضعها على الرمال ثم قال بصوت متهدج :

حينما تعود فتذكر أن هناك شخصا اسمه إمحوتب !

تركني ورحل، لم يتوقف أو يستدر لينظر خلفه علّي أرى وجهه ثانية، علا صوتي بكلمة إمحوتب وسمعت صداها في فضاء الصحراء لكن إمحوتب قد رحل ...

11\4\2014

شكر خاص

إلى كل من ساعدني أو حاول، وإلى كل من رفض أو صد!

رحاب محمد

هبة بسيونى

محمد إبراهيم

كمال اليماني

شيماء محمد

سمر محمد

للتواصل مع الكاتب

محمد عيد غنيم

Muhammad Ghonem

بريد اليكترونى : taimallah82@yahoo.com

الحساب الشخصى على الفيس بوك: https://www.facebook.com/muhammad.id1



عصير الكتب للنشر الإلكتروني

٢٠١٣ – ٢٠١٤

IMHOTP'S CRYSTALBALL

بلورة إمحوتب

لن يثوروا على هذا الظلم الواقع عليهم؛ لأنهم يبحثون فقط عن قوت اليوم
وما داموا سيحصلون على قوتهم بعد أن يُقتلوا، فلا بأس، أن يقتلوا مرات
مادام قتلهم سيسكت أطفالهم الرضع وسيطعم عيالهم الجوعى،
وسيكسوا نساءهم وعائلاتهم من البرد القارص ومن الشمس الحارقة .
نعم لا بأس إن هم قُتلوا مرات ومرات، الناس هنا يموتون من أجل أن يعيش أحباؤهم،
يجوعون من أجل أن يُطعم أحباؤهم، يتعرون من أجل أن يُكسى أحباؤهم،
الناس هنا طيبون، وأسوأ ما فيهم أنهم طيبون !!!

محمد غنيم

MohammedIbrahim's Design 2014